

# اتحقاقاً؟

ويمثل توجيه التهمة إلى «الانتحاريات» آخر صرعة تلقفتها أجهزة الإعلام لتضخها بالحياة وتضخمها.

أما مصداقية الشرطة العراقية كمصدر للأخبار فمثير للضحك المبكي في تضاريفها وتناقضها. إذ غالباً ما يكون المصدر محكوماً بإصدار التصريح بعد صدور التصريح العسكري الأميركي.

والملاحظ من خلال متابعة نقل أخبار التفجيرات والكشف عن هوية مرتكبيها، أن أجهزة الإعلام، حتى العريقة منها، نادراً ما تورد تقارير مكتوبة من مراسليها وبعد إجراء التحقيق المتبع عادة للتأكد من مصداقية الخبر وصحته. بل هي تعتمد على تصريحات القيادة العسكرية الأميركية وتابعها العراقي، فضلاً عن استنساخها الخبر من الوكالات المستندة أساساً إلى الاحتلال والشرطة العراقية.

وهنا يطرح السؤال: ما هو سبب التفجيرات، حسب المصادر، ومن هم مرتكبوها؟ إن العراقيين مقتنعون أكثر من أي وقت مضى بأن الاحتلال يستهدف أي مكان لوجودهم سوية، إذ يراه مجالاً لتفاعل الناس الطبيعي، وللوحدة الشعبية، وغطاءاً لتحركات المقاومة العراقية، وتنسيقاً لجهود التكافل الاجتماعي كجمع التبرعات لعوائل الشهداء وتوزيعها بوجود شهود.

فالأسواق ليس فيها طائفية أو عرقية أو مناطقية، وهي البوتقة التي تنصهر فيها المكونات والثقافات وتنبثق منها الخيارات الوطنية. ويسري الشيء نفسه على الاحتفالات الدينية. وهذا هو المفتاح لمعرفة المستفيد من

تفجير الأسواق والاحتفالات، ومن يسعى عبر مرتزقته وأمواله لإجبار العراقيين على الانزواء خلف جدران المحلة والطائفة والائتنية عبر تفجيرهم أولاً، ثم إلقاء المسؤولية عليهم ثانياً. ومن الضروري التذكير بدءاً، بأن قوات الاحتلال غالباً ما تهنيء الأجواء والأذهان إعلامياً قبل حدوث مثل هذه العمليات. فقبل أيام من عملية الكاظمية مثلاً، حذر «قيادة الجيش الأميركي من أنه على الرغم من تحسن الوضع الأمني، إلا أن منفذي الهجمات الانتحارية بساترات ناسفة ما زال بمقدورهم التسلل بين الحشود في الأماكن المكتظة بالناس. ونفذت النساء أكثر من 20 هجوماً انتحارياً في العام الحالي» حسب قناة «العربية».

وبعد تهئية الأذهان لقبول حتمية الانفجارات، ليتقبل الناس وجود قوات الاحتلال كضرورة لتوفير الأمن وحماية الناس من «العمليات الانتحارية»، يشير إصبع الاتهام إلى الجهة المسؤولة وهي الانتحاريات المرتبطات بـ«القاعدة»، حيث تخبرنا صحيفة «الحياة»: «يحذر سياسيون من إسهام هذا التكتيك النسائي الفتاك في عودة نشاطات تنظيم القاعدة الهادفة لإحياء النعرات الطائفية».

أما عن هوية مرتكبي التفجيرات، فتخبرنا «العربية» في تقرير لها، حرصت فيه أشد الحرص على التصنيف الطائفي لكل مواطن عراقي وكل مناسبة وكل شارع وشجرة، بأن «الهجمات ضد الزوار الشيعة تحمل علامات تنظيم القاعدة السني».

ويبدو أن تحميل «القاعدة» مسؤولية تدريب الانتحاريات ليس كافياً بالنسبة إلى كلمة

التحرير في صحيفة «الصباح»، فقدمت إلينا مرتكبي التفجيرات كخلطة من «ديدن بقايا نظام صدام وبرامجهم الانتقامية التي تلتقي مع شذاذ الأرض من الإرهابيين القتلة... عصابات أعداء الديمقراطية والكارهين لاستقرار الأمن ونجاح العملية السياسية».

ويبقى السؤال المهم: لماذا النساء؟ إن التعبير الذي قدمته شعبة الدعاية والإعلام في جيش الاحتلال، وتلقفته أجهزة الإعلام بلا تمحيص، وبني عليه تكوين صورة نمطية مستنسخة هو «أن تنظيم القاعدة يستخدم بشكل متزايد النساء في شن هجمات، إذ يمكنهن إخفاء المتفجرات تحت ملابسهن السوداء الفضفاضة دون أن يخضعن لتفتيش من حراس الأمن الرجال». هذا التعبير هو جزء من حملة التضليل الإعلامي لتشويه صورة المقاومة العراقية والنساء اللواتي يمثلن الحاضنة الاجتماعية لها لأسباب عديدة: أولها لأن من المعروف أن المقاومة العراقية تحمي النساء والأطفال، فصار ضرورياً اتهامها بأنها «عصابة مجرمين جنائز غير قادرين على القتال فيستغلون ضعف النساء»، بحسب تصريح الناطق العسكري الأميركي، وأنها تستخدم النساء في أعمال إرهابية وتحميلهن مسؤولية التفجيرات في الأماكن المزدحمة وقتل الأبرياء من النساء والأطفال. ثم لتحويل الأنظار عن المستفيد الأول من التفجيرات، وهو المحتل ومرتزقته وشركات حمايته الخاصة، ونفي المسؤولية عن حكومة الميليشيات وتبرير عدم حمايتها المواطنين أو القيام بأي تحقيق يؤدي إلى كشف الحقيقة وإعلانها. فالتفجير الانتحاري هو الفعل الملائم

لحكومة المنطقة الخضراء لتحتمي وراءه من المساءلة والعقاب. كما أنه الفعل الملائم لتحويل الأنظار عما ترتكبه قوات الاحتلال وحكومة الميليشيات من جرائم ضد المرأة العراقية، وخاصة اعتقال النساء واحتجازهن رهائن لحين تسليم الأقارب من الذكور أنفسهم، وذلك حسب تقارير المنظمات العالمية مثل منظمة العفو الدولية. فصار مبرراً الآن اعتقال النساء ومهاجمة البيوت بعد منتصف الليل، وقصف البيوت وقتل من فيها من نساء، لأنهن «انتحاريات يستهدفن الأبرياء».

وتجدر الإشارة إلى أن ما يزيد على نصف التفجيرات التي أعلن عن تنفيذها من جانب انتحاريات قد تم التراجع عنها بعد مرور فترة قصيرة، وبعد أن رسخت أجهزة الإعلام فكرة الانتحاريات في أذهان الناس. إذ قال رئيس مجلس محافظة ديالى إن التفجير الذي وقع وسط سوق شعبية في مدينة بعقوبة، يوم 7 تموز هذا العام، نجم عن عبوة ناسفة زرعتها مجهولون، وليس جراء تفجير امرأة نفسها بحزام ناسف، كما تردد من قبل.

وقد توصل الصحافي العراقي وليد الزبيدي في تحليله للأخبار المتعلقة بالأعمال الانتحارية، إلى خلاصة أواقعه عليها وهي: «إن القراءة المهنية والموضوعية لجميع التفجيرات الغامضة التي استهدفت الأبرياء، تؤكد أن هناك تعمداً وقصدية لقتل هؤلاء، وبدون أدنى شك أن قوات الاحتلال ومن يعمل في خدمتها ويسعى لتنفيذ مشروعاتها، هم الذين يقفون وراء قتل هؤلاء العراقيين، وبهذه الطرق الإجرامية».

\* كاتبة وصحافية عراقية

## إعادة الاعتبار لأولوية الصراع الطبقي

سعد الهرزغاني \*

في البدء كانت حاجة الإنسان إلى إشباع مستلزماته المادية من مأكلاً وشراباً وماوى... وحول هذه الحاجة يدور الحيز الرئيسي من الصراع في هذا الكون: لجهة إنتاج المواد الأساسية، ولجهة الاستحواذ على وسائلها، ولجهة اختراع هذه الوسائل، ولجهة حماية هذه المواد وتلك الوسائل، ولجهة تسويق ما يفيض منها لتعزيز عناصر الإنتاج ولبناء عناصر القوة والنفوذ والسلطة في نظام علاقات ينظم بدوره، حياة مجتمع في حقبة تاريخية معينة من مراحل تطوره وتبلوره واستقراره.

توصف هذه العملية غالباً، بأنها ذات طابع موضوعي وحيادي. وتبدو الدولة وسلطتها كأنهما فوق المصالح الفئوية لهذا الطرف أو ذاك، ولهذه الطبقة أو الفئة الاجتماعية أو تلك. تبدو أن كانهما تقضيان بالعدل بين أفراد المجتمع، ووفق نظم وقوانين ترتكز على مبدأ المساواة والإنصاف.

ليس هذا فقط، بل غالباً ما جرى توظيف التعاليم الدينية التي أتت بها الرسالات

لم يؤد انهيار الاتحاد السوفياتي إلى جعل العالم أفضل ولن يمنح القمع والإرهاب تحرك الشعوب

السماوية في خدمة هذه العملية. إن إسباغ صفة القداسة على الحاكم أو أنظمة الحكم، أو الاثنين معاً، هو أمر شائع إلى حد بعيد في أماكن كثيرة من عصرنا هذا. ومع انهيار الاتحاد السوفياتي في مستهل تسعينات القرن الماضي، نشط أصحاب الاستنتاجات «الفكرية» والسياسية، ممن يرون أن العالم قد وصل إلى «مستقر له». الفيلسوف الأميركي ذو الأصل الياباني فرانسيس فوكوياما، رأى منذ عام 1989 أنه «لسببين مستقلين: الأول ينصل بالاقتصاد، والثاني ينصل بما يسمى الصراع من أجل نيل التقدير والاحترام، تمثل الديمقراطية الليبرالية (اقتصادياً وسياسياً)، نقطة النهاية في التطور الإيديولوجي للإنسانية والصورة النهائية لنظام الحكم البشري». ويضيف: «وبالتالي فهي

تمثل نهاية التاريخ». ويقرر جازماً حاسماً، بعد ذلك: «من غير المستطاع أن نجد ما هو أفضل من الديمقراطية الليبرالية مثلاً أعلى». وفي امتداد هذا التفكير الذي يتبنى «حتمية تاريخية» نقبضة لتلك التي توصل إليها هيغل أو بشر بها ماركس، قدم باحث أميركي آخر، هو صامويل هنتنغتون نظاماً جديداً للنزاعات والصراعات بمختلف أشكالها وأسبابها، هو النزاع والصراع و«الصدام بين الحضارات» (كتابه الشهير الصادر عام 1996 الذي حمل عنوان «صدام الحضارات وإعادة بناء النظام العالمي»).

نظر هذان بكفاءة لا يمكن إنكارها للديموقراطية البورجوازية الليبرالية. لكن الكفاءة وحدها لا تكفي لإلغاء الحقائق الموضوعية. إنها تصلح في أحسن الأحوال لحجبها أو لتشويهها، فترة من الزمن! مناسبة هذا الكلام ليست للأسف استخفاف دور ونشاط «القوى الثورية والتحررية والتقدمية والديموقراطية العالمية»، من حيث انتهت (تقريباً) عام 1990، بانهيار قوتها الأساسية ونموذجها الاتحاد السوفياتي (ومعه تلقائياً، البنى التي أقيمت دون أن تبرر بشكل كاف قيامها في بلدان الشرق الأوروبي).

المناسبة هي، ببساطة، ذلك الصراع الطبقي الاجتماعي الذي يتبلور أكثر فأكثر، في مناسبات ومؤسسات وتجمعات وبيئات عنفاً تحاول «العولمة» ضيغها وإخضاعها. يحصل ذلك طبعاً رغم منطوق أولئك الذين يحاولون إسباغ صفة أزلية على التفاوت الطبقي الصارخ، وعلى الاستغلال المفرط، وعلى العبودية الجديدة، سواء منها تلك التي تشمل شعوباً وحتى قارات بأسرها، أو تلك التي تستهدف، كما هو الأمر تقليدياً، مصالح فئات اجتماعية وطبقات محددة.

يوصل الرأسماليون في الواقع، العمل بشكل مكشوف من أجل هدف واضح ووقح: زيادة وتعظيم الربح، وممارسة وقونة وشرعنة النهب، وتبرير تفاقم الفقر والتباين في المدخيل، إلى درجة تتجه باستمرار في عكس مبدأ الحرية والمساواة التي زعم فوكوياما أن الديمقراطية الليبرالية هي خير سبيل لبلوغها، رغم الأخطاء ورغم «القصور في التطبيق»، كما استدرك!

ويقع في مقدمة الأمثلة على ما نقول فشل المجتمعين في مدينة جنيف السويسرية بالتوصل إلى تفاهم على اتفاقيات جديدة بشأن المنتجات الزراعية والسلع الصناعية. لقد اجتمع هناك ولمدة تسعة أيام كاملة بين 21 و30 تموز الماضي، ممثلو 153 دولة بينها الدول السبع

التجارية الكبرى (الولايات المتحدة، الاتحاد الأوروبي، اليابان، الصين، الهند، البرازيل، أستراليا)، وخرجوا بدون نتيجة. أما سبب الفشل، فيعود إلى رفض الولايات المتحدة بعض إجراءات الحماية التي أصرت عليها دول مثل الهند وإندونيسيا، وهي دول تحاول منع انهيار تجارة مئات الملايين من مزارعيها الذين يعيشون حياة الكفاف والفقر.

وفي مثل آخر حذر الكاتب جميل الذباني في جريدة «الحياة» (اللاثنى 4 آب الجاري) من حصول «ثورة جياح» في عدد من دول الخليج، بعد الاضطرابات التي شهدتها دولة الكويت (وقبلها إمارة دبي، وكلتاها يتمتع مواطنوها بأعلى معدل دخل في العالم)؛ فماذا حصل في دولة الكويت؟ لقد تحرك بضعة آلاف من العمال الآسيويين (البنگاليين أساساً) للمطالبة بدفع رواتبهم التي تتأخر أحياناً ستة أشهر كاملة، علماً أن هذه الرواتب، بالنسبة إلى عمال النظافة، لا تتعدى المئة دولار أميركي؛ وماذا كان الرد: لقد طرد ألف من هؤلاء ليكونوا عيرة لمن اعتبر!

نعود إلى ازدياد الهوة والتفاوت بين الشمال والجنوب، وبين الأغنياء والفقراء، وبين الدول الصناعية والدول النامية، وبين الرأسماليين والعمال... فقد أفاد التقرير السنوي لمنظمة الأمم المتحدة للتجارة والتنمية (أونكتاد)، أن دول الشمال الغنية (لا تزال ممسكة بعصب التجارة الدولية، إذ تتحكم في ثلثي الاقتصاد العالمي، علماً أن سكان الدول النامية والأكثر فقراً، يمثلون 85 في المئة من سكان الكرة الأرضية).

لا يترك المجال لفقراء آسيا وأفريقيا خصوصاً لترتيب أولوياتهم على نحو يضع مسألة الجوع والفقر فضلاً عن الحرية والسيادة، في المقدمة. فهؤلاء يعانون فرض أولويات أخرى تتعلق بالصراعات الإثنية والطائفية وصراعات الحدود... إلى المذهبية الناشطة حالياً، كإداة من أدوات السيطرة في منطقة «الشرق الأوسط الواسع»!

لم يؤد انهيار الاتحاد السوفياتي إلى جعل العالم أفضل في ظل النظام الرأسمالي الليبرالي «خاتم بني البشر» كما وصفه فوكوياما. ولن يمنع القمع والإرهاب والغزو تحرك الشعوب من أجل حقوقها الاقتصادية والسياسية، كما حصل في أميركا اللاتينية. لقد فشلت صيغة من صيغ إيجاد بديل عادل لنظام الديمقراطية الليبرالية. لكن هذا الفشل لن يعني أبداً انتفاء الحاجة إلى النضال من أجل التغيير، ومعه من أجل بلورة صيغة سليمة للتحرر والحرية والديموقراطية والمساواة والعدالة الاجتماعية.

\* كاتب وسياسي لبناني